الفصل الأول

مدخل لدراسة المجتمع ومكانة التربية فيه

أهمية دراسة المجتمع :

ينظر لعالم اليوم وفقا لتقسيمات وتصنيفات عديدة منها : تصنيف يصنفها إلى متقدمة ونامية . ومنها آخر يقسمها إلى متقدمة وشبه متقدمة ونامية جزئياً ومتخلفة . وما إلى ذلك من التصنيفات العديدة . وتتم هذه التصنيفات وفقاً لمعايير متعددة منها : ما هو اقتصادى ، ومنها ما هو اجتماعى ، ومنها ما هو تربوى ، ومنها ما يجمع بينها أو بين بعضها . وكل دولة من دول كل صنف تأخذ فى عالم اليوم بنصيب ما أو تهتم بقدر ما بدراسة مجتمعها . فالدول المتقدمة تدرس مجتمعاتها وتقيم هذه الدراسة على أسس علمية متقدمة . والدول شبه المتقدمة يقل نصيبها من هذه الدراسة بقدر ما ، وهكذا حتى نصل من هذا التدرج إلى أن نجد الدول المتخلفة أقل الدول دراسة لمجتمعاتها .

على أن هذه الدول الأخيرة تتطلع فى هذا العصر إلى أن تصل إلى ما وصلت إليه الدول السابقة فى مضمار التقدم . وبالتالى فى مضمار دراستها لمجتمعاتها . وجاء هذا التطلع نتيجة لعدة أمور سمع بها كل العالم فى هذا العصر وتأثر بها ، منها : انتشار سبل المواصلات وخاصة السلكية واللاسلكية ، وكلنا يعلم دور وسائل الإعلام المختلفة من إذاعة وصحافة وتليفزيون فى نشر الفكر الحديث والاتجاهات الحديثة .

ولقد سارت دراسة المجتمع - كما سنشير فيما بعد - فى مراحل كثيرة حتى أصبحت تقوم على المنهج العلمى . وعلى العلم وحقائقه . شأنها فى ذلك شأن أى علم من العلوم الطبيعية .

والحقيقة أن دراسة الشعوب لمجتمعاتها قد سارت متواكبة مع مراحل النمو الاجتماعى لها عبر التاريخ . ولكنها لم تكن فى عصر من العصور من قبيل الرفاهية . وإنما كانت دائما تستمد أهميتها من حتمية توفير ما يسد حاجات المجتمعات المختلفة . وكانت تعظم هذه الدراسة فى أثناء الحروب . وفى أثناء المجاعات وفى أثناء الرقى الحضارى وكانت الأساليب

المتبعة فى دراسة المجتمعات علمية فى بعض الأحيان بمنطق عصرها . إذ كانت تقوم على العد والحساب والمسح والموازين ، وما إلى ذلك من المقاييس ولكن هذه الأساليب تصبح اليوم – فى ظل الدراسات العلمية الحديثة للمجتمعات – شيئا بسيطا جدا لا يقارن . حيث تتبع أساليب الدراسة العلمية لظواهر المجتمع مستخدمة مناهج فى الاحصاء الرياضى ومناهج فى تحليل النظم الاجتماعية تحليلا رياضيا ، وأساليب الإسقاط والتنبؤ من أجل بناء خطط اجتماعية واقتصادية تتحكم فى المستقبل وفى صور للمجتمعات فى المستقبل يكون مرغوبا فيها . .

ولذلك فإن دراسة المجتمع لم تعد لمجرد سد الحاجات ، أو لمواجهة المجاعات والفوز فى ميدان المعارك الحربية ، ولكن هذه الدراسة تأخذ أهميتها فى هذا العصر ومكانتها فيه من إدراك المجتمعات لأهمية التخطيط للمستقبل ، وأهمية تغيير صورة المجتمع إلى صور مرغوب فيها كأن يتحول من مجتمع زراعى إلى مجتمع زراعى صناعى ، وأن يتحول من مجتمع جاهل إلى مجتمع متعلم ، ومن مجتمع متخلف إلى مجتمع متقدم .

أهمية دراسة مجتمعنا :

إن دراسة المجتمع فى هذا العصر بالنسبة لكل المجتمعات على اختلاف مراحل نموها الحضارى ، ومع قلة نصيب المجتمعات النامية منها إلا أنها ضرورية جدا لما تواجهه من مشكلات عديدة : سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية . وهى مشكلات تبلغ فى ضراوتها درجة أكثر مما تبلغها فى غيرها من المجتمعات المتقدمة . ومجتمعنا المصرى من هذه المجتمعات النامية يرنو إلى أن يفهم مشكلاته وأسبابها وكيفية علاجها بشكل يمكنه من أن يواجهها وأن يلحق بالدول المتقدمة .

ولقد دعم الأهمية لدراسة المجتمع المصرى انبثاق عديد من التيارات العصرية فيه وإيمانه ووعيه به ، كوعيه بأهمية الثورة بأبعادها المختلفة سياسية واجتماعية واقتصادية لكى يجابه بها التخلف فى جميع المجالات ، ووعيه بمفهوم العدالة الاجتماعية بأبعادها المختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية ، وأشكالها التطبيقية فى واقع الحياة الاجتماعية ووعيه بأهمية العلم والمنهج العلمى فى الإمساك بزمام الأوضاع فى المجتمع وتوجيهه فى اتجاه لا يخطئ

ولا يتلكأ . وإدراكه ووعيه بالعدالة الاجتماعية الدولية بأبعادها المختلفة من مساواة بين الشعوب سياسيا ومحاولة إيجاد نوع من التكافل الاقتصادى بين دول العالم . وهكذا .

أهمية دراسة المجتمع لدارسى التربية :

وإذا كانت دراسة المجتمع تمثل ضرورة من ضرورات العصر على كل طالب علم ومعرفة بل وعلى كل عامل فى مجال تطبيق سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى بالمعنى الشامل فإنها ضرورية كذلك بالنسبة للمعلم . ذلك لأن دراسة المجتمع بالنسبة للتربية وللعاملين فيها هى المجال الحيوى الذى تشتق منه التربية أهدافها ومحتواها وعلاقاتها ، بل إنها المجال الذى يبصر التربية بكيفية إعدادها للقوى البشرية كميا ونوعيا للوفاء بحاجات هذا المجتمع فى حاضره ومستقبله . ولعل مما يزيد من أهمية دراسة المجتمع وعلم الاجتماع وعلومه بوجه عام بالنسبة لدارسى التربية أن علم الاجتماع يعتبر الآن أصلا وأساساً من أصول التربية . بل إن علماً جديداً هو علم الاجتماع التربوى قد ظهر فى هذا المجال ليربط بين التربية وعلم الاجتماع . وهو ذلك العلم الذى يطبق مبادئ علم الاجتماع على التربية ويعتبر أن التربية تمارس تأثيراتها لا فى المدرسة وحدها ولكن من خلال مؤسسات اجتماعية كثيرة ومتعددة مثل الأسرة والبيئة المحلية ، والمجتمع القومى وما يوجد فيه من وسائط ثقافية أخرى .

ومما يزيد من أهمية هذه الدراسة أيضاً أن المدرسة لا يمكن أن تنفصل عن المجتمع ، كما أنها لا يمكن إلا أن تتفاعل مع التغيرات الحادثة فى هذا المجتمع . ومع التيارات العصرية التى يستحدثها العصر وإلا تخلفت عنه ، كما وأنها لابد أن تبشر باتجاهات المستقبل كما يتصورها الفلاسفة والمفكرون فى مستقبل العصور . ومنهج المدرسة لا يمكن إلا أن يتضمن فى محتواه وأهدافه تلك القوى والأبعاد والأهداف والأحداث الاجتماعية التى تجوب هذا المجتمع وأعماقه ، وهذا العصر وخصائصه . والتخطيط للتعليم يستند أساساً على رصد لإمكانات ولموارد هذا المجتمع . وتخطيط حاجاته من القوى البشرية كميا ونوعياً على أساس هذه الإمكانات والموارد ، وعلى أساس أهداف هذا المجتمع الحضارية والثقافية . ومن هنا كانت دراسة المجتمع بالنسبة للتربية بمثابة دراسة الإطار الحيوى العام الذى يشكل كيان التربية . أهدافا ومناهج وطرقا ووسائل ووظائف ومسئوليات .

وإذا كانت دراسة المجتمع فى غاية من الأهمية بالنسبة للتربية وللباحثين فيها ولمدين

يعدون فى مجالها للاضطلاع بأعبائها فإن كثيرا من العلماء والمفكرين قد أدركوا أهمية دراسة المجتمع لكل الناس ، ولكل المهن وللأدوار الاجتماعية المختلفة التى يقوم بها الإنسان فى حياته وفى مجتمعه .

من هنا أصبحت هذه الدراسة تحتل جزءا هاما فى إعداد المعلم وإعداد غيره للمهن المختلفة من طب وهندسة وزراعة وإخصائيين اجتماعيين وغيرهم من سائر التخصصات الأخرى .

تطور دراسة المجتمع :

قلنا إن دراسة المجتمع ليست وليدة هذا العصر ، وإنما خضع المجتمع منذ فجر التاريخ للدراسة والبحث وإن كانت هذه الدراسة قد اختلفت اختلافا كبيراً سواء من ناحية أهدافها أو وسائلها أو طرقها أو ميادينها أو درجة أهميتها وبالتالى من حيث العمق والدقة والاتساع والتخصص فيها باختلاف المجتمعات وظروفها ودرجة تطورها وتعقدها . فحيث عاشت المجتمعات البشرية الأولى حياة بسيطة فى تركيبها وأهدافها وحاجاتها ، فإن ذلك لم يتطلب منها تفكيراً كثيراً فى أمسها أو غدها إلا بالقدر الذى تستفيد منه لمواجهة مشكلاتها البسيطة فى حاضرها . ولم تكن معرفتها لغيرها من الجماعات المجاورة شيئاً يشغل بالها . وكانت مواجهتهم لمشكلاتهم الاجتماعية تخضع للتفكير المباشر ، والحلول المباشرة مستفيدين بالطرق التى واجهها بها آباؤهم وأجدادهم . ومن هنا كان هؤلاء الكبار أجداداً وآباء معلمين لهؤلاء الصغار ينشئونهم على لغتهم وعاداتهم وأساليبهم فى الزراعة والحرف المختلفة . ومن هنا كانوا يقدسون الماضى لأنه دائماً يحمل لهم الحلول للمشكلات الحاضرة فضلا عن ارتباطه بهؤلاء الأجداد الكبار المعلمين والمربين وحاملى الخبرة المباشرة .

وإذا أردنا تفسير أو تحليل موقف الفرد من دراسة مجتمعه البسيط هذا فإننا ندرك على الفور أنه كان يعرفه بطريقة مباشرة وعن طريق الاحتكاك المباشر والتنشئة المباشرة على ثقافته . وكانت دراسته غير محتاجة إلى التسجيل لبساطتها .

أثر اختراع القراءة والكتابة فى دراسة المجتمعات :

وحينما تراكمت خبرات المجتمعات ، وتعرضت للنسيان ، وعجز العقل البشرى عن أن

يحفظ نتائجها كلها . اخترع القراءة والكتابة ليدون بهما ويتناقل سبل حلول لمشكلاته عن طريقها ، وليدون أمجاده التاريخية واختراعاته ، وأخباره ومشاهداته . وبمعنى أشمل يسجل تراثه الثقافى من لغة وعلم وفن ودين وانتصارات وهزائم وآمال وما إلى ذلك .

ولم تصل المجتمعات إلى هذه المرحلة إلا بعد أن تطورت الحياة الاجتماعية تطورا كبيراً فيما عرفناه فى تاريخ البشرية فى مصر الفرعونية وفى العراق فى ظل الحكومات المركزية .

واعتبرت الحكومات المركزية فى هذه البلاد أن جزءا أساسيا من عملها هو دراسة هذه المجتمعات . وكانت هذه الدراسة تشمل عدة جوانب منها إحصاء السكان ومعرفة مهنهم ، ومنها دراسة للأرض ، ما عليها وما فى باطنها ، فقد درست الأرض الزراعية لمعرفة مساحتها والضرائب المستحقة عليها . ودرست الأنهار وفيضاناتها . ودرست الجريمة وأسباب ارتكابها . بل تعدت هذه الدراسة إلى التعرف على الشعوب المجاورة وعلى قوتها لتتقى هجماتها ولتغزوها إذا وجدت لذلك سبيلا . وهدفت هذه الدراسة إلى عدة أمور :

- دراسة ظروف الأمن الداخلى ، وكيفية الحفاظ عليه بالقانون وبرجال الأمن .

- دراسة الأوضاع الاقتصادية لتحديد الميزانية والدخل ومواجهة المشكلات الاقتصادية . وتشعبت هذه الدراسة إلى دراسة القطاع الزراعى ، والقطاع الحرفى وما إلى ذلك .

- دراسة ظروف الأمن الخارجى وكيفية مواجهة القوى الخارجية بالجيوش المختلفة .

فكانت هذه الدراسة تتصف بالشمول والانتظام ، لكنها كانت مقصورة على من يعرفون القراءة والكتابة من الناس ، وما أقلهم فى ذلك الوقت ! .

على أن مثل هذه المجتمعات قد أفرزت على مر التاريخ القديم والوسيط مجموعة من الناس تخصصوا فى هذه الدراسة الشاملة التى شملت كل شىء تقريباً عن الوجود ، وعن الإنسان ، وعن المجتمع : وهم الحكماء والفلاسفة والرحالة . من هؤلاء نذكر بتاح حب الحكيم المصرى القديم ، وأفلاطون فيلسوف الإغريق القدماء . وابن خلدون المؤرخ العربى . وكل منهم قد تناول دراسة المجتمع والإنسان فيه وموقعه من الكون الطبيعى والكون الذى وراءه بشكل ما ، وعلى صورة من الصور أفادت منها البشرية على مختلف فترات التاريخ .

غير أن بعض هذه الدراسات كانت تصدر عن انطباعات شخصية وفكر فلسفى ، كما

تمثلت فى فلسفة أفلاطون وبعضها الآخر كان يصدر عن دراسة لواقع الحياة الاجتماعية كما تمثلت فى كتابات ابن خلدون . . . لكن فى كل الحالات كانت هذه الدراسات غير عامة ولا يعرف بها جماهير الشعوب . وإنما اقتصرت على تلك الفئة القليلة من الفلاسفة والمفكرين والرحالة وتلاميذهم الذين كانوا هم الآخرين من الضآلة بحيث يكونون قلة قليلة بالنسبة لجموع الناس . أما غالبية المجتمع أو المجتمعات فى ذلك الوقت فظلت تعرف مجتمعاتها بالطريقة المباشرة ، كما كان يفعل أسلافهم فى المجتمعات البسيطة عن طريق الخبرة المباشرة وبطريقة تلقائية فى أثناء مواجهاتهم لمشكلاتهم فى المجتمع [١] .

دراسة المجتمعات فى العصور الحديثة :

ظلت هذه الدراسة تتطور تطوراً بطيئاً طول العصور الوسطى . وخاصة فى أوربا ، حيث كانت متخلفة . أما فى العصور الوسطى الإسلامية فقد أشرنا إلى رمز لتفوقهم فى هذه الدراسة بذكر العلامة ابن خلدون . وبتخلف الحضارة الإسلامية تخلفت معها مثل هذه الدراسة إلى أن بدأت أوربا تأخذ بناصية القيادة فى التقدم . فأخذت تدعم هذه الدراسات شيئا فشيئا حتى تحررت من الانطباعات الشخصية والفلسفية . وخضعت للدراسات العلمية . واتبعت نفس مناهج العلوم الطبيعية من ملاحظة ومشاهدة ورصد للظواهر الاجتماعية وتحليل وتفسير لهذه الظواهر الاجتماعية إلى أن وصلت إلى قوانين ونظريات اجتماعية لها احترامها مثلها مثل القوانين والنظريات الطبيعية . وساعد على ذلك التطور والتقدم فى دراسة المجتمع عدة تغيرات حدثت فى حضارة هذا العصر الحديث منها :

١ – اتباع المنهج العلمى : كوسيلة لدراسة ظواهر الطبيعة ومعرفة أسبابها والقوانين التى تتحكم فيها . ونجاح هذا المنهج فى مجال العلوم الطبيعية بدا واضحا فى قدرة الناس على السيطرة على الطبيعة لصالح البشرية ، مما حدا بالمفكرين الاجتماعيين أن يفكروا فى تحقيق مثل هذا النجاح فى مجال المجتمع ، بمحاولة دراسته دراسة علمية تحرره من الخرافات والجمود .

كما أدت الدراسات المعملية فى العلوم الطبيعية إلى مخترعات ومبتكرات طبقت فى واقع

(١) محمد الهادى عفيفى وآخرون . التربية ومشكلات المجتمع . مكتبه الأنجلو المصرية . ١٩٧٢ .

الحياة الصناعية والزراعية والتجارية وترتب على ذلك ما يلى :

(ا) تغير صورة العلاقات الاجتماعية فى داخل هذه المؤسسات ، فظهرت فى صورة معقدة متشابكة .

(ب) زيادة وسائل الاتصال بين المجتمعات المختلفة ؛ مما جعلها تشترك مع بعضها فى حصيلة المعرفة البشرية كلها : طبيعية ، واجتماعية .

(جـ) أدت هذه الصورة المعقدة إلى التخصص وتقسيم العمل بارتفاع مستوى العمل وتعدد أنواعه ومهاراته . وكل ذلك أدى إلى ظهور مشكلات فى العمل وبين العمال وأصحاب الأعمال . وأثر كل ذلك فى الحياة الاجتماعية كلها .

٢ – تطور مفهوم الديمقراطية وتطبيقها فى الحياة المعاصرة .

وينمو هذا الاتجاه حدثت أمور كثيرة فى حياة المجتمعات : منها ضرورة فهم الإنسان لمجتمعه ، حتى يسهم فى بنائه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . ومن هنا أحس الجميع أن المعرفة الاجتماعية بجميع فروعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ليست حكرا على فئة من الناس ، وإنما هى ملك لجميع من فى المجتمع وإن كان التخصص فى دراسته تقتضى وتتطلب مجموعة معينة من الناس فإن ذلك من قبيل التخصص وتقسيم العمل فى مجالات العلم ومجالات المجتمع .

٣ – تطور مفهوم القومية وتجسيداتها فى حياة الدول المختلفة .

وهى تعبر عن الوعى الاجتماعى بعدة اتجاهات منها التماسك الاجتماعى ، والتنظيم الاجتماعى والإدارى ، ووحدة الأيدلوجية القومية ، والجيوش الوطنية وهذا أدى بكل مجتمع قومى أن يدرس عوامل القوة والضعف فيه وأن يقارنها بعوامل القوة والضعف فى غيره من المجتمعات حتى يقوى فى مضمار التنافس العالمى والتعاون الدولى والصراع السياسى والعسكرى .

٤ – الإيمان بالتغير المخطط له تخطيطا علميا كسبيل الى التقدم :

إن المجتمعات أصبحت تدرك أن التغير هو سنة الوجود ، وأنها تسير نحو مستقبل

مجهول . ومن هنا فكرت فى مسار هذا التغير وفى ضرورة السيطرة عليه بالدراسة العلمية والتنبؤ العلمى فى مجاله حتى تتحكم فى مستقبلها . ومن هنا كانت أهمية دراسة المجتمعات فى ديناميكيتها وفى حركتها المستمرة . ومن هنا أيضا كان التوصل إلى أساليب التخطيط الاقتصادى والاجتماعى والتربوى يتطلب هذه الدراسة . والتخطيط هو أولا وأخيرا منهج لمعرفة الحاضر وإمكاناته ، ودراسة إمكانية توجيهه على أساس علمى فى المستقبل لتحقيق التقدم الاجتماعى والاقتصادى الشامل .

٥ – تطور مفهوم الإدارة واستبطانها للمنهج العلمى :

فلقد أصبحت الإدارة أسلوبا علميا يستخدم كافة الدراسات العلمية فى اتخاذ القرارات ، وفى تحريك العمل : التخطيط له ، وتنفيذه ، ومتابعته على نحو ما سنشير إلى ذلك تفصيلا فيما بعد .

ويحتاج ذلك إلى دراسة لكافة إمكانات المجتمع ، ومؤسساته ، وأهدافه وأهدافها حتى يمكن لها أن تحقق هذه الأساليب العلمية فى مجالاتها المشار إليها .

٦ – تطور التربية والتعليم :

فلقد تطورت التربية وأصبحت تقوم فى كل عملياتها على الدراسة العلمية . واقتضى ذلك دراسة المجتمع وأهدافه ، وثقافته . إذ أن المجتمع وأهدافه وثقافته هو المصدر الرئيسى لاشتقاق الأهداف التربوية . كما أن ثقافته هى الوعاء الذى تستمد منه التربية مادتها ومناهجها .

كما تطور مفهوم التخطيط التربوى وتطورت أساليبه . ولم يعد فى مقدور المخطط التربوى ، من الناحية النوعية والكمية والكيفية أن يخطط للتعليم ، دون أن تتوفر لديه مادة خصبة عن المجتمع وثقافته وإحصائيات سكانه والفئات العمرية فيه . ومعلومات عن نوعية السكان ، وإحصائيات عن مؤسساته وقواها البشرية الحالية وحاجاتها المستقبلة منها . وهذا كله قد جعل دراسة المجتمع مسأله ضرورية وحتمية فى هذا العصر . كما جعل هذه الدراسة دقيقة ومتخصصة إلى أقصى درجة كما سنشير إلى ذلك تفصيلا فيما بعد .

ويمكننا بعد هذا العرض المختصر إن نقول أن هذه الاتجاهات والأبعاد العصرية المشار إليها عاليه هى التى أثرت على شكل وجوهر الدراسة العلمية للمجتمعات المعاصرة .